طلابنا و«صورة البطولة»

فى زمن التوسط والتشابه يروج الأوساط أنصاف الناس ، ويفتقد النموذج والمثال الأعلى ، وهذا أمارة عقم ومسخ للتفرد والفذاذة ، وكأنما أريد للناس فى مثل هذه الأزمنة الخابية أن تستوى لديهم الظلمة والنور ، وأن يدخلوا ماكينة «سك» العملة ليخرجوا مهازيل يرضون بما هو متاح دون أن تطمح أبصارهم لما هو أعلى ، وهذا لا يكون لأناس متمايزين !!

جاشت بنفسى هذه الخواطر ، وأنا أطالع كتاب «شوقى شاعر العصر الحديث» للدكتور شوقى ضيف ، المقرر على الثانوية العامة ، والكتاب جيد ومنهجه محكم، وعرضه شائق والنماذج الشعرية فيه ذات دلالة وموظفة فى محلها ، وأسلوب شوقى ضيف محكم وجزل ، لكن هل أحمد شوقى - ودعك من شاعريته - يصلح أن نرفعه نموذجًا إنسانيًا رفيع المستوى أمام الناشئة ؟

أعتقد أن الإجابة بالنفى ولا يطعن هذا الحكم فيه ولا فى الكتاب ومؤلفه ولا حتى فى شعر شوقى ، وفيه ذخيرة لغوية يفيد منها الطلاب ، اللهم إلا إذا كان المراد لطلابنا أن يكونوا متأثرين بشوقى فى مهادنته ، وانغماسه فى الواقع رديئا أو حسنًا ، وحسابه للمكاسب قبل الخسائر .

ليس شوقى بالنموذج البطولى ، الذى يأتسى به الشباب المرجو لأمته ، المطبوع على الصراحة والتضحية والأريحية ، الرافض للمذلة والاستكانة ، بل هو على النقيض من ذلك ، فهو الرجل المنعم الرافل فى متع القصور ، حتى حين نفى كان نفيه ناعمًا رقيقًا ، يصحب خمسًا من الخدم من جنسيات مختلفة ، ويصله راتب ضخم هو نموذج مناسب لعصر الانفتاح والتطبيع يطأطى رأسه للرياح ، ولا يواجهها حتى حينما اقترب من الشعب .

إن التاريخ يصنعه أفراد ممتازون من الشعب ، ولدينا نماذج رائعة صالحة أن يقتدى بها الشباب ، وأن تهز مشاعره إذا أردنا لها أن تهتز ، وأن تلهب حماسته

الوطنية التى تحلم بالعدالة ، وتنفر من الطغيان ونعتقد أن كتاب الدكتور ضيف عن «البارودى» أولى بأن يقــرر على شبابنا فى تـلك السن ومثله «صقــر قريش» لعلى أدهم ، والشاعر «الطموح» لعلى الجارم و«أحمد عرابى» للخفيف ، ومحمد عبده «والتفكيرفريضة إسلامية» للعقاد ، ومثـلها كثير تتقدم «أحمد شوقى» نموذج الرضا بالواقع ، والتطبع مـعه ونحن نريـد لشبـابنا من خلال هذه النمـاذج العليا الـبذل والوطنية والبطولة ، وقـبل ذلك كله «التنوير» بمعناه الحقـيقى ، إذا كنا نريد لوطننا التضحية والفداء لا الجبن والاستخذاء .

إصلاح المنطق

فى مجلس علمى كبير ، دخل دكتور متخصص فى «النحو» ، ومعه شهادة يريد التصديق عليها ، وفيها هذه العبارة : «نشهد - نحن الموقعان - . .» قرأها الأستاذ وتوقف قبل أن يوقع ، راجياً أن يقرأها الدكتور ، فقرأها غير مستغرب ولا متوقف ، فما كان من الأستاذ إلا أن لفت نظر الدكتور إلى أسلوب الاختصاص، وإلى صواب العبارة «نحن الموقعين» ، وعلق الأستاذ : إنه كان يود عدم التصويب ، لترفض شهادة الدكتور ، ويمنع من الإعارة ، لولا خشية الأستاذ أن تظن الجهة المقدم إليها الشهادة أن المصدق عليها أيضا لا يعرف «النحو» !!

حادث كهذا كان يستغرب من الناشئة والشداة فى تعلم العربية قديمًا ، قبل غاشية الجهل بها ، والافتخار بعدم معرفتها ، تمسحًا بالعجز الذميم وبعدم الاختصاص ، وكأن النحو لا يعرفه إلا المتخصصون فيه ، ويرى المرء سيلاً من تلك الأخطاء التى شاعت على ألسنة الكتاب والمتحدثين حتى خطباء المساجد من الأزهريين - سدنة النحو واللغة - ولم تقف أخطاء هذه الطائفة الأخيرة على اللغة وحدها ، بل نسمع آيات القرآن الكريم ، وليس فيها من الضبط غير الخطأ ، ويفزع المرء حين يسمع خطبة الجمعة ، وكنا فى الصبا الأول نسمعها ونتعلم منها الآداب العربية بجانب الآداب الدينية ، أين ولى ذلك الآن ؟

أصبحت المعاهد المتخصصة لا تشترط حفظ القرآن الكريم أو تشترط ، وتتساهل مع هذه الأعداد الكبيرة ، وأغلب الظن أن جانبًا كبيرًا من الأزهريين الآن لايحفظون القرآن ، ولا عجب إذا رأينا بعد عقدين على أكثر تقدير شيخ الأزهر والمفتى مثلا - وسيكونان من الشباب الحالى - لا يحفظان القرآن ، ويفتيان بغير علم فضلوا وأضلوا !!

حتى الشعراء والأدباء الآن تستطيع أن ترى فى نسيجهم اللغوى من يحفظ القرآن ممن لم يحفظه ، ونعتقد أن القرآن هو باب العربية الأول ، حتى بالنسبة

لغير المسلمين ، ومكرم عبيد باشا نموذج واضح لهذا .

نعتقد أننا بحاجة جادة إلى أن يعود الحفظ إلى سابق مجده فى هذه الأمة ، ولا ينفق المرء إلا مما ادخره ، يستوى فى ذلك حفظ القرآن ، والتراث الشعرى والنثرى، وأن نرفض تلك النظريات التربوية المفسدة للملكة اللغوية والسليقة العربية ، وأن تعود المختارات «كالمنتخب من أدب العرب» إلى المدارس كلها ، وربما نطمع فنحاول إنشاء شعبة لـلعربية كشعبة العلوم والرياضة فى المدارس الثانوية، وبهذا تستقيم الملكة العربية ، ونتعلم النحو من النصوص لا من كتب القواعد فحسب ، ولعلنا نعيد النظر فى كليات التربية التى تخرج تربويًا ، غير عالم بتخصصه فى كل الميادين ، لغة وغير لغة .

لكن قبل ذلك كله نملك النخوة والغيرة على لساننا ، بدلاً من الاستهانة والازدراء ، وتسويغ العجز ، ولنتأكد من أن الأمم الآخرى حتى العوام منهم يحرصون على لسانهم ، حتى مع الأجانب . . أذكر أننى لم أنطق "P" الباء الثقيلة أول عهدى فى مدريد فما كان من بائع الخبز (PAN) إلا أن لفت نظرى بقسوة إلى الصواب ، وأدركت أن الأمور لا تتجزأ ، وأن الغيرة لا تشترى ، وأن البيان بيان ، سبحانه «خلق الإنسان علمه البيان» .

الجامعة المصرية إلي أين؟

فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٢٤ من شعبان سنة ١٣٢٤ ، ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٦ اجتمع فى منزل «عزتلو سعد بك زغلول» طائفة من المكتتبين لإنشاء الجامعة المصرية ، يتقدمهم سعد زغلول وكيلاً للرئيس العام ، وقاسم أمين سكرتير اللجنة وعضوية تسعة آخرين ، وتأجل انتخاب الرئيس . وتبرع الناس ، وكان أقصى مبلغ دفعه حسن جمجوم ١٠٠٠ جنيه ، وأقل مبلغ دفعه عبدالعزيز فهمى عشرة جنيهات ، ووصلت جملة التبرعات ٤٤٨٥ جنيه ، وهرع الناس بالهبات لدرجة أن تلميذًا دفع عشرين مليمًا مصروفه فى أربعة أيام .

توالت الاجتماعات - وكانت لها قيمة - فى منازل سراة القوم ، وتدفقت الاكتتابات ، وتوالت الاجتماعات ، وكان من أبرزها ماتم فى سراى حسن زايد بك بالمنوفية ، وأسهبت المؤيد فى وصف هذا الاجتماع ، والوابورات التى ألقت مراسيها هناك ، ورأس الاجتماع **الأمير أحمد فؤاد** وألقى خطبة عامرة ، وتم وضع لائحة للجامعة الوليدة ، وكان من أبرز بنودها الإرساليات العلمية إلى أوروبا ، أو مايعرف بالبعثات الآن ، وفى ٢١ من ديسمبر ١٩٠٨ احتفل بافتتاح الجامعة المصرية رسميًا فى القاعة الكبرى بمجلس شورى القوانين بحضور الخديو عباس ، وانتظمت الدراسة فى دار «جناكليس» التى تشغلها الجامعة الأمريكية الآن، بعد أن تم وضع المناهج ، واختيار الأساتذة من المصريين والأجانب ، لتدريس العلوم والفنون والآداب ، والمعارف المصرية ، والحضارة .

وكان من أهم بنود الجامعة هو استقلالها ، وصرح **الأمير أحمد فؤاد** :

«إنى أعلن على رءوس الأشهاد مكررًا ماقلته سابقًا ومرارًا من أن الجامعة المصرية ومجلس إدارتها ، وجمعيتها العمومية مستقلة تمام الاستقلال ، وليس لأى سلطة أو جهة من الحكومة أدنى تدخل فى أعمالها ، وإن كل القرارات التى قررتها اللجنة ، والتى ستقررها إنما أصدرتها وستصدرها بتمام الاستقلال بما يوحيه ضميرها وإخلاصها فى خدمة هذا الوطن العزيز وتفانيًا فى رفع شأنه ، وتكوين

رجاله ، الذين سيكونون أعظم ذخيرة له فى مستقبل الأيام». وجاءت بعض فقر هذا الاستشهاد بخط الأمير أحمد فؤاد نفسه فى محضر الجلسة.

تقلبت الأيام بهذه الجامعة فى مقارها ، حين عجزت أن تدفع إيجار «جناكليس» سنة ١٩١٣ ، حتى تبرعت الأميرة المحسنة فاطمة هانم إسماعيل بأرض المتحف الزراعى الآن ، وبالأرض التى تشغلها وزارة الأشغال حتى غدت فى محلها الحالى برعاية هذه السيدة الفضلى ، وكريم رعايتها المادية والأدبية .

يعجب قارئ هذا التاريخ القريب من ذلك الوعى الناهض فى هذه الأمة ، ولعل الخطوة الأولى هى أعسر الخطوات فى الطريق ؛ لأن السالك الأول يكتشف ويعتسف ، ويجئ اللاحق وقد مهدت السبل ، وبرزت المعالم ، يعجب القارئ لأن النهضة تلك ، أدرك أولئك الناس رسميين وعلماء أنها فى حاجة إلى الاتكاء على تراث الأمة ، وكان حفنى بك ناصف والشيخ المهدى والخضرى وغيرهم على رأس هذه القائمة ، وعلى العلوم الوافدة ممثلة فى أولئك العلماء القادمين من أوربا فى تخصصات متعددة ، وممثلة أيضًا فى أعضاء البعثات الذين قامت على كواهلهم أسس النهضة فآتت أكلها فى زمن قياسى . كل هذا كائن والاحتلال آخذ بالأكظام، وتدخلاته المعوقة تسد كل المنافذ ، لكن للنهضة رجالاً كانوا أولى بأس شديد ، وفهم رجيح ، كما آزر ذلك كله مكتبة عامرة ، بالعربية وبكثير من اللغات ، وكانت مساعى الأمير فؤاد إلى أوربا وجامعاتها تذلل كثيرًا من المصاعب فى إهداء المكتبات الأوربية ذخائر الكتب إلى مصر ، ولم تقتصر المكتبة على اقتناء الكتب ، بل شملت المعادن والعملات ، ويكتب الأمير قصة حصوله على تلك الهدايا ، كأنه متفرغ تمامًا لشئون الجامعة ولايشغله مايشغل نظراءه من شئون السياسة وغيرها ، مع أنه كان داهية شديد المراس .

وكانت التفاتة جيدة آنذاك أن يسمح للمرأة ، أو أن يفكر فى إنشاء قسم نسائى بالجامعة للدراسة ، وبدأ هذا القسم سنة ١٩١٠ كما يدخل فى نطاق هذه الالتفاتة أن يُبتعث أطفال إلى أوربا . وإن كان واحد منهم قد عاد حين خشى عليه أهله نسيان العربية .

سارت الجامعة تبث رسالتها باعتبارها من المنافع العامة ، تتلقى الاكتتابات

والوقفيات من كل طوائف القطر من الأسرة العلوية وبخاصة الأميرة فاطمة إسماعيل التى فاقت الرجال ، وتبرعت بالأرض المقام عليها الجامعة وبحليها - وهى شديدة النفاسة - للأبنية، واستحقت أن تكون أم الجامعة ، وتلك المراثى التى قيلت فيها ، وإن كانت قصيدة شوقى بك فيها دون المستوى ، لكن هذه ملاحظة عارضة .

وارتأت لجنة الجامعة فيما بعد أن تجعلها حكومية ، وسلم حسين رشدى باشا محضر التسليم لوزارة المعارف فى ٩ ديسمبر ١٩٢٣ ، نظرًا للقلاقل المادية إبان الحرب الأولى ، وماتبع ذلك ، ووضع الأمير أحمد فؤاد حجر الأساس للمبنى الحالى بالجيزة سنة ١٩٢٨ ، وضمت إليها بعض المدارس العالية ، إلى أن دخلت دار العلوم العليا فى حوزتها ١٩٤٦ ، بمبناها القديم بالمنيرة ، حتى خلا بالهدم وانتقل إلى حرم الجامعة ، وظلت بعض كليات الجامعة خارج الحرم مثل الطب والهندسة والصيدلة ، وغزتها مبان عشوائية الآن قضت على خضرتها وحدائقها والبقية تأتى !!

كانت الجامعة فتحًا مبينًا لا لمصر وحدها بل للشرق كافة ، والأمم الإسلامية وبعض الأوربية التى تجئ إليها طالبة العلم ، أو يسعى إليها المبتعثون ليحصلوا على شهاداتها العليا ، وقد لعبت دورًا عظيمًا فى حياة هذا المجتمع ، وكان لها من استقلالها وحريتها وحرية أساتذتها مايخول لها هذه المكانة المرموقة ، ونظن أن رحلة الكلمات والأفكار فى رءوس هؤلاء الطلاب - آنذاك - كانت تحفر خلايا جديدة ، وتزرع خضرة وأملاً حين لم يكن من برامج الجامعة هدف إلا رسالة العلم والثقافة ، وقد وعت ذلك منذ بداياتها فأدخلت نظام الدراسات العليا وحصل المشايخ : طه حسين وزكى مبارك وغيرهما على الدكتوراة فى الآداب من الجامعة القديمة ، وعلى القارئ - غير مأمور - أن يراجع قائمة الأسماء الكبيرة فى الجامعة ليدرك ببساطة : أى نمط من التعليم كان ، وأى نمط من الطلاب والأساتذة كان !! كانت الحرية تنشر سلطانها على الأذواق والأفكار ، وكان الحاملون لها أحق بها وأهلها ، ماذا كان يصنع طه حسين ، والسنهورى ، وأحمد ضيف وأحمد أمين، وإبراهيم مصطفي، وأبوزهرة،وزكي نجيب محمود، والمبدعون على الجارم وعبدالمطلب ، ونجيب محفوظ ، ومحمد عبدالحليم عبدالله

وكثيرون غيرهم ، كانوا - بلاريب - يذكروننا بجو قرطبة العلمى ، والرحلة الدائبة بين المشرق والمغرب ، والحياة التى صارت إبداعًا محضًا ، والإبداع التى تجسد حياة ، هكذا كانت رسالة الجامعة !! .

كثرت الجامعات الآن ، لدرجة أن كليات أزهرية افتتحت فى القرى ، حسن كل هذا ، لكن !!

ماذا عن حال الجامعة الآن ؟

سؤال إجابته عسيرة ومؤسفة ؛ إذ فرغت الجامعة من رسالتها إلى حد بعيد ، حين غدا القائمون عليها أو أغلبهم من أهل الثقة لا الكفاءة ، وأصبحت الوظائف القيادية بالتعيين لمن يرضى عنهم ، وأغلبهم يريق ماء وجهه إذا كان هناك بقية من ماء - فى سبيل الحصول على المنصب ، ورحم الله أحمد أمين حين قال : إنه أصغر من أستاذ وأكبر من عميد ، وحين غدا البعض منهم ولاؤهم لمن عينهم ، ونسوا العلم تمامًا ، وأعضاء هيئة التدريس هم من طلبة المدارس - سابقًا - فى ظل نظام لايسمح بتميز الشخصية ولانماء الفكر ، إن هى إلا آلات تضغط على الزر فتتحرك حركة لاتنسب إلى الآدمية ، وفى ظل الترقيات الحالية بخمسة بحوث تصل كلها إلى مئة صفحة تقريبًا ، وإن صح هذا فى المعامل فلايجوز فى الدراسة النظرية أو العلوم الإنسانية ؛ وخاصة علوم العربية ، وبعد أن كان القارئ يتلهف على مايكتبه الأساتذة فإنهم قد خذلوه ، لأنهم لم يؤلفوا كتابًا ، وبعد الأستاذية يطلقون العلم طلاقًا بائنًا ، باحثين عن المناصب ، وغدت الجامعات الإقليمية فى أغلبها تضم رجالاً من تحت السلاح لم يكونوا من النابهين ، والانتداب من جامعات أخرى لايدع للأستاذ إلا حمل (شنطته) وتوزيع المذكرات التى تعدم بمجرد الامتحان ، يحدث هذا فى الجامعات العريقة أيضًا .

وانفتح باب غريب يسمى الدراسة باللغات الأجنبية والجامعات الأجنبية [كندية - إنجليزية - فرنسية] والبقية تأتى ، والجامعات الخاصة ومصروفاتها الباهظة ، وهؤلاء الطلاب - فى أغلبهم - مصريون اسمًا خارج الجنسية المصرية ، ويكرسون - أو من أراد لهم هذا - تلك الفجوة الطبقية فى ظل أكذوبة (التعليم المجانى) فى كل المراحل ، ولايعبأ أكثرهم بالعلم ، لأنهم ضامنون الوظيفة أو الاعتماد على «دادى» فى الأعمال الحرة أو غيرها !! .

يضاف إلى ذلك مذبحة الجامعات التى تولى كبرها مفيد شهاب وزير التعليم العالى السابق، وغدا لدينا الآن [أساتذة عاملون - متفرغون بعد الستين - متفرغون بعد السبعين - غير متفرغين بعد السبعين] أى تكييف قانونى ، يسمح بهذه المهزلة التى ماسمعنا بها فى آبائنا الأولين ، وكان كادر القضاء فى أوائل السبعينيات يطالب بمساواته بكادر الجامعة ، فإذا بنا الآن فى ذيل القائمة والبقية تأتى ، ماذا ينتظر أن يقدم أستاذ فى ظل هذا التناقض الصارخ ؟ فضلاً عن المكافأت الهزيلة التى تمنح لهم فى الإشراف على الرسائل ومناقشتها . . هل يتخيل القارئ أن مناقشة الماچستير ب٧٨ جنيه بعد عناء قراءتها وكتابة التقرير وجلسة المناقشة ، ومثلها مكافأت لجان فحص الإنتاج العلمى ؟ .

كان طلاب البعثة فى إسبانيا أيام د. أحمد هيكل يحصلون من مصر على مرتب ضعف مرتب رئيس القسم الإسبانى بالجامعة ، ماذا حدث لنا ؟ .

تأتى مسألة الدكتوراه من الخارج ، وهى مضحكة بكل المقاييس ، فى إسبانيا مثلاً : أعلى مؤهل تترجم «دكتوراه» وهى هناك توازى الليسانس أو دبلوم الدراسات العليا ، دكتوراه الجامعة وهى مثل الأولى ، دكتوراه الدولة وهى الشهادة المعتمدة للإسبان أنفسهم ، تقابلها دكتوراه تمنح للأجانب وتختم «لايحق لحاملها العمل فى الجامعات الإسبانية» وهى فى مصر تترجم بالدكتوراه وكفى ، وكله عند العرب دكتوراه لأنها أرخص من الصابون !! .

نظام الفصلين الدراسيين لايتيح للطالب مهلة كافية فى زمن قصير جداً ، تتخلله امتحانات وكنترولات على حساب العلم ، وإذا صح فى بعض المواد فلايجوز فى اللغة العربية وآدابها ، وإلا فكيف يدرس الطالب تاريخ الأدب فى الأندلس - ثمانية قرون - مثلاً فى ثلاثة أشهر على الأكثر .

أيها السادة : نحن فى حاجة إلى مواجهة أنفسنا فى وقت ، لايسمح للهزل أن يسيطر ، وفى زمن يتقدم الناس بسرعة الضوء ، والأمل معقود على الجامعة ومراكز البحث المنسية أو الناسية أن تعيد النظر فى موقفها ، وأن تعيد سيرتها الأولى الماجدة ، التى لم نحافظ عليها بل نبددها بيدنا ، وماذلك بعزيز .

ملحق للمقال

[صورة الوثيقة التاريخية التى وضعت بالحجر الأساسى لبناء دار الجامعة الأولى ببولاق الدكرور (مقر وزارة الزراعة الحالى) سنة ١٩١٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكُنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله
والصّلاة والسّلام على نبيّه العربىّ الذى بعثه بالحكمة وفصل الخطاب

أمّا بعّدُ فإن هذا اليوم المبارك يوم الاثنين الثالث من شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية (الموافق لليوم الثلاثين من شهر مارس سنة أربعة عشرة وتسعماية وألف ميلادية) سيكون له بفضل الله شأن كبير فى تاريخ النهضة الفكرية وارتقاء الحركة العلمية فى ربوع مصر وبين أهاليها

فلقد تفضّل صاحب الأريكة الخديوية عزيز مصر الأكرم سمو مولانا الخديو المعظم الحاج عبّاسُ حلمى الثانى محيى العلوم والآداب العربية فتصدر بذاته الشريفة الحفلة التى أقامتها ربيبة المجد وربة الكرم الدرة العصماء صاحبة الأيادى البيضاء فاطمة الزهراء لوضع الحجر الأساسى لبناء الجامعة المصرية فى البقعة المباركة التى وهبتها لها من أراضيها الكائنة فى بولاق التكرور من أرباض القاهرة .

فكان فى حضوره السعيد طالعُ يُمن وإقبال وبشير نجاح وفلاح لاسيما وأن جنابه العالى تنازل ووضع بيده الكريمة الحجر الأول من بناء هذا المعهد الذى سيقوم على أساس متين ليكون موئلاً للعلم والعرفان ومنهلاً عذبًا يتزاحم عليه طلاب الفضل والكمال وذلك فى خلافة مولانا السّلطان الأعظم والخاقان الأفخم

أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين السّلطان ابن السّلطان السّلطان محمَّد رَشَاد الخامس أدام الله شوكته وأيد بالعز والنصر دولته .

وكأنّ العناية الربانية أبقت هذا الفخر محفوظا فى ضمير الدهر إلى أن تأتى سَيّدة سيدات العصر لتكّمل بفضلها العميم مابدأ به جدها الأعلى الحاج محَّمد عَلى الكبير وما أقامه والدها أبو الفدا اسماعيل الذى رفع قواعد العلم فى وادى النيل .

فلقد أصغت إلى الكلمة الطيبة التى ألقاها على مسامعها الزكية فخر الأطباء الدكتور ——————————————

محمد علوى باشا واستمعت إلى قوله الحسن فاغدقت على الجامعة فيض مكارمها التى شكرها النيل وسيتحدث بنعمتها أبناء النيل جيلاً بعد جيل ————

وكان فيما وهبته لها من المواهب الجسام هذه الأرض التى سيقوم عليها هذا البناء لاستقرار الجامعة فيه على الدوام ولاستمرارها على نشر المعارف العالية بين أفراد الأمة المصرية إلى أبد الآبدين .

فأحيت الأميرة الأصيلة النبيلة بهذا الصنع المفيد اسم أبيها الكريم وقدمت لأمتّها الشاكرة معونة نافعة باقية وسطرت لنفسها فى صحيفة حسناتها مثوبة خالدة إلى يوم القيامة .

وقد تمّ وضع الحجر الأساسى فى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا البناء فى السّاعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم المبارك بمشهد حافل من أمراء مصر ورجالاتها وأعيانها وذوى المقامات العالية فيها ——————————

وقد تفضّل الجناب العالى الخديوى الأفخم وصاحبة الدولة والعصمة المحسنة العظيمة فتوّجا هذا المحضر بتوقيعهما الكريم بخط يدهما الشريفة ثم تلاهما فى التوقيع حضرات الأعضاء القائمين بإدارة الجامعة المصريّة ، والله المسؤول فى تمام التوفيق وحسن الختام.

من إنشاء أحمد زكى باشا سكرتير مجلس النظار

طوفان الدكتوراه إلى أين ؟!!
المعضلة والعلاج

نكأ الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى - نسأ الله فى أجله - جرحًا ناغراً ، وذكرنى طعنًا كنت أتناساه ، ومن جرائه حرصت منذ حصولى على درجة الدكتوراة ألا أقرن اسمى بلقب هو فى ذاته جليل ، حيث يعنى فى الإسبانية أن صاحبه صار له مذهب أو طريقة ، وقلت ضمن ماقلت فى مستهل أحد كتبى : «لا يذكر المترجم اسمه مقرونًا باللقب العلمى الذى حازه ، لأنه يرى أن شيوع هذا اللقب فى الآونة الأخيرة أنقص من قدره ، وإن لم ينقص من قدر الملقبين به ، وخاصة من جيل أساتذتنا الذين حازوا اللقب فى زمان كان يعرف قيمة الأشياء ، والتى انماعت فى زماننا «ألقاب مملكة فى غير موضعها» ، إلى أن أقول : والأساتذة الإسبان لايعرفون هذا اللقب مكتفين بذكر «السيد» قبل الاسم ، وهى سنة حسنة لعل بيننا من يعتنقها ، فنعرف الحق بالرجال ، لا بألقاب الرجال ، ونشر الكتاب سبع طبعات مصدراً بهذه الكلمة التى لم تجد صدى إلا يسيرا !! .

ولعلِّى - وقد بدأ الأستاذ مقاله بطرفة عن شيخ معهد الزقازيق الذى مدحه شاعر من الطلاب فى عهد قرزمته ، وفى قصيدته بيت مكسور - أطرفه بما حدث لدكتور يدرس مادة النحو فى إحدى الكليات العريقة ، ودخل مكتب وكيل الكلية وكنت حاضراً ليوقع الوكيل على شهادة حسن سير وسلوك ، أولها : «نشهد نحن الموقعان . . .» ، فما كان من الوكيل إلا أن طلب من الدكتور أن يقرأ الشهادة ظانا أنه خطأ كتابى يستدركه صاحبنا ، وكانت الطامة أن قرأ الدكتور الكلام كما ورد مكتوبًا ، فأسقط فى يد الوكيل ، وأبلس ، ماذا يصنع ، وفى النهاية أفهمه الخطأ طالباً تصحيحه ، وخرج الدكتور «والباب يصفع قفاه» كما قال الرافعى فى حديث عن العقاد ، وشتان بين الموقفين ، لكن القافية تحكم ، وتحدث الوكيل حين سألته عن حيرته ، فقال : كنت سأوقع على هذا الخطأ لكى ترد الجهة التى يريد الدكتور

التعاقد معها معاراً هذا الطلب ، لكنه خشى - أى الوكيل - أن تظن تلك الجهة بالدكتور وبالوكيل الظنون ، وأن الكلية العريقة غير أمينة ، وهكذا كان ، وسافر صاحبنا ، ليعود أستاذًا مساعدًا يشرف ويشارك فى مناقشة الرسائل .

فانظر الفرق بين زمنين !! زمن الطلاب وزمن الدكاترة !!

خلا هذا اللقب من مضمونه ، ليس فى كليات معينة ، بل عمت البلوى ، فتجد الدكتور الطبيب ، والدكتور المهندس على تلك الحال - إلا من رحم ربك ، وجأرت حناجر الأساتذة الكبار بالشكوى ، ولا من مجيب ، كما جأرت أيضًا بتقديم المقترحات الإصلاحية ، وعقدت الندوات والمؤتمرات ، لتوضع التوصيات فى الأدراج ، ولو كففنا عن عقد المؤتمرات وطلب الحلول بضع سنوات ، وبحثنا عن التوصيات القديمة لكان فيها علاج ناجح ، لكن هكذا يراد ، ونعوذ بالله من الخذلان ، كما كان يدعو شيخنا ابن حزم .

بيد أن الطامة الكبرى تتمثل فى تخصصات معينة هى جوهر هذه الأمة ، لأنها تمثل صميمها ، ولاينهض بها غير أبنائها البررة ، وهى الدراسات الإنسانية وخاصة اللغة ومايتعلق بفروعها ، حيث لايمكننا استيراد متخصصين ومبدعين فيها بخلاف التخصصات العلمية ، لأن العلم لا وطن له .

وفشت البلوى مع افتتاح الجامعات الإقليمية حيث تقوم على نمط من الدكاترة من «تحت السلاح» كما يقولون ، وفى ذرعهم القيام بتدريس كل الفروع بلامثنوية، واشتط ببعضهم الغلو فى إنشاء الدراسات العليا ، ينهض بها المدرسون الذين كانوا حتى الأمس فقط يدرسون فى المدارس الإعدادية ، وزهد أساتذة الجامعات الكبرى فى الانتداب إليها ، حيث ينظر إليهم على أنهم يأخذون لقمة العيش من تلك الأفواه الإقليمية ، ولأن الوقت غير متاح لهم أو لأكثرهم ، ولضآلة العائد المادى ، وصار فى ذرع الدكتور هنالك أن يدرس مادة كالأدب المقارن ، وهو لايعرف كتابة اسمه باللغة الأجنبية .

وقد بُليت أقسام العربية بضعفة الطلبة من الحاصلين على ٥٤٪ فى بعض السنوات ، وتخرج بعضهم معيدًا ، وصار أستاذًا الآن ، ولم يدخل تخصصه

راضيًا ، بل قذف به مجموعه ، وإذا تقدم طلاب فائقون ، فإنما يذهبون إلى كليات التربية وهى مفتقرة بحسب منهجها إلى الكم والكيف المعرفى فى مواد التخصص ، حيث ينازعها المواد التربوية وطرق التدريس وعلم النفس ، وكلها علوم مفيدة لمن يملك مادة تخصصه أولاً كالعربية أو اللغات الأخرى ، وبقية التخصصات ، وإلا فما جدوى أن يعرف الطالب طرق التدريس والتربية ، ولايعرف جيدًا قواعد العربية وأدبها ونقدها ؟ ،

وهكذا الأمر فى كل التخصصات ، ومن هؤلاء يكون المعيدون الذين لايقيمون لغتهم ، وهم الأساتذة فيما بعد ، نعتقد أن هؤلاء الطلاب الفائقين كان يمكن تعليمهم جيدًا فى التخصص فى غير كليات التربية .

يضاف إلى ضعف تكوين الطالب الذى سوف يكون معيدًا ، ثم دكتورًا فيما بعد ، نظام الفصلين الدراسيين الذى إذا صح فى بعض المواد ، فلا صحة له فى علوم العربية والدراسات الإسلامية ، لأن الزمن فيها جزء من العملية التعليمية ، وإلا فماذا يصنع الطالب فى مناهج الأدب والنقد ، بقضاياها وعصورها المختلفة ، وإن وقتًا ينفقه الطالب فى تذوق النصوص وهى عسيرة ، وبعض عصورها يبلغ ثمانية قرون ، لايمكن أن يضيع سدى فى خلال عام دراسى كامل ، لابضعة أشهر هى زمن الفصل الدراسى ، حيث يظل يديرها فى نفسه ، ويجيلها فى خاطره ثمانية أشهر فيحسن فهمها وتذوقها ، ويتمكن من خلالها من فهم كتاب الله وهو ذروة البلاغة والبيان .

ونعتقد أن نظام الفصلين لايحقق له هذه الغاية المرجوة ، كما نعتقد أو نظن على الأقل أنه نظام لايؤمن به غير واضعيه والقائمين على تنفيذه من أهل الإدارة، وربما يكون بعضهم أول ذاميه فى خلوته ، حين يثوب إلى فطرته ، ربما يحقق متابعة للطالب ، ولكننا نلاحقه بامتحانات متكررة فى وسط العام الجامعى وفى آخره ، وربما تتكرر هذه الامتحانات مرتين كل فصل للمتخلفين ، والأصليين ، ثم دور سبتمبر ، مع مايتبع ذلك من استعدادات للامتحانات والتصحيح ، ونهاث لاينتهى ، على حساب العملية التعليمية ، وهى الأصل الأول الذى لا أصل يسبقه فى كل الأمم الناهضة ، أو هكذا ينبغى على الأقل .

وإن طالبًا يتخرج فى ظل هذا النظام التعليمى ، مع الملخصات والدروس الخصوصية ، كيف يكون لنا منه باحث جيد فى المستقبل حين يعين معيداً ثم دكتورًا ؟

ولايعنى ذلك أن نظام العام الدراسى الكامل لامثالب فيه ، لكنها فى تصورنا أقل ، ومعالجتها لاتكون بنظام الفصلين ، بل بصيغة تجمع بين المتابعة الفصلية والتحصيل الكامل خلال عام دراسى كامل .

ومن الهزل الذى لم نلتفت إليه أن هناك جامعات أجنبية لن أسميها الآن ، تمنح درجة تسمى «أعلى مؤهل» فى مدارس الفنون ، ويترجم المكتب الثقافى هذه الكلمة بلقب «دكتوراه» ، فى حين أنها توازى الليسانس أو دبلوم الدراسات العليا، وبعض هؤلاء الطالبين لها كانوا قد حصلوا على الماچستير فى مصر ، وهى درجة أعلى من تلك الدرجة «الخواجاتى» وفى اعتقادنا أن الفن لايحتاج إلى مثل هذه الدرجات فحسب الفنان فنه ، وهو أعلى من أى لقب ، لكن الرغبة فى الألقاب ، والدرجة المالية - وهى حق وظيفى - وراء هذا السعى المشكور ، وبعض هذه الجامعات تمنح درجة الدكتوراه وتسمى «دكتوراه الجامعة» ؛ تمييزاً لها عن «دكتوراه الدولة» ، التى تمنح لأبناء البلد المانح نفسه ، وتميز الجامعات الدرجة الأولى بخاتم يقول : «لايصرح لحاملها بالعمل فى الجامعات . . .» وتمنح للعرب ولأبناء أمريكا اللاتينية ، فى كثير من البلدان ، وبعضها تسمى «دكتوراه الدرجة الثالثة» وآخرون يترخصون فى كتابة الرسالة بلغة غير لغة البلد المانح ومنها العربية، مادام الفساد بعيداً ، ويرحل عن بلادهم إلى بلادنا أو أشباهها .

وثمة دكتوراه أخرى هى «الفخرية» ، ويتمسك بعضهم بها ، ولاتخول له التلقيب بها ، لكنه الداء المطمئن ، والذى لايجد له شكيمًا ضابطًا .

هؤلاء الدكاترة ومن على شاكلتهم يترقون الآن فى ظل نظام غير دقيق ، وحسبك أن تعلم أن البحوث المقدمة فى حدود خمسة ، كل واحد منها فى حدود عشرين أو ثلاثين صفحة ، ومعروف معقولية هذا فى البحوث العلمية ، التى ربما لاتزيد عن صفحات قصار جداً ، تحمل كشفًا أو نظرية جديدة تغير مسار العلم ربما ، لكن فى الدراسات اللغوية أو النقدية ، ماذا يكتشف الباحث فى بحث عن

مقدمة القصيدة عند البارودى مثلاً فى حدود تلك الصفحات ، بعد تمهيد عن حياة الشاعر وملابسات الإبداع ، وكلها كلام «بالت عليه الثعالب» ، إلا كلام من رحم ربك وهم أقل من القليل ، ثم يتقدم ببحوث مثلها إلى الأستاذية ، ويرقى بعض مايسمى بالبحث المرجعى فى مقال ، تستغرق وقتًا لايسمح باكتشاف الباحث ، ويكتفى بالدرجة دون تقرير علمى كما كان المنهج السابق ، ربما تكون فيه بعض ثلوم ، لكن إلغاءه ووضع منهج مخالف له ، سيجعل من الأساتذة جيلاً مقطوع الأنفاس ليس له كتاب ، يبين فيه منهجه ودرسه ، ودعك من المباحث المسروقة وليس الأساتذة الفاحصون محيطين بكل شئ علمًا ، فضلاً عن خصاصة المكافآت الممنوحة للفاحص ولعضوية اللجنة ، واللجنة المناسبة تضم فى عضويتها أناسًا لايعرفهم حتى أهل الاختصاص ، لأن العدالة رأت مقياس الأقدمية كافيًا ، وأهملت العلم والفضل بجانب المقياس المتبع، وهو كسيح بكل المعايير ، صحيح أن فى بعض اللجان أسماء لامعة علمًا وفضلاً، لكنها قليلة جدًا ، ولاذكر هنا للمجاملات الشخصية والنحل المذهبية ، التى تقدم وتؤخر كثيرًا فى الضوابط والأحكام .

بعض هؤلاء الدكاترة تأخذهم العزة بالإثم ، ويرون أن المكان لابد أن يخلو لهم بتنحى الأساتذة الكبار ، ليحلوا محلهم ، وليتهم يملأون المكان كما ملأه الأساتذة ، حيث الهزال والطوى ينشران سجفهما عليهم ، ولاشئ غير الادعاء ، سطوًا على جهود الأساتذة ، وتعجلاً دون ركيزة راسخة من العلم .

وبعض هذه اللجان العلمية تشكل من أساتذة القسم نفسه كما يحدث فى الأزهر عند ترقية الأساتذة المساعدين ، ولست أدرى هل لاتزال هذه السنة متبعة أم لا ؟ وهنا تفرخ المجاملة الإفراخ الطبيعى ، ليت الأستاذ الدكتور البيومى أشار إلى هذه القضية ، وإلى مايحدث فى الأزهر خاصة ، وأمانة الأستاذ ليست محل حجاج .

أذكر أن طالبًا تقدم برسالة فى قسم النحو - مجاراة أذكرها لمدرس النحو الذى ذكره الدكتور البيومى - والطالب جدلاً ، يذكر المصطلحات دون فهم ، ويريد أن يكون مجددًا فما كان من شيخ جليل عضو فى المناقشة ، إلا أن قال له : لاأفهم

ماتعنى ، وطلب من طالب الدكتوراه أن يشرح المراد ، فقال كلامًا لايحسن السكوت عليه - رعاية لمقام سادتنا النحاة نذكر بعض كلامهم - وهنا قال الشيخ لتلميذه المشاكس : أعرب البيت المذكور شاهدًا فى رسالتك ، وإذا بالطالب قد أجْبَلَ وأفْصَى ، ولم يحر جوابًا !!

تلك طائفة علا صوتها ، واشتد لجبها ، ووجدت من يصغو إليها - أى يميل - فعاثت فسادًا فى علم هو قوام العربية ، وقوام أى لغة أخرى ، وماكان أساتذة الإسبانية يترخصون معنا حتى فى نطق بعض الكلمات والأحرف العسيرة بالنسبة للأجانب بله النحو ، وما أشق أزمنة أفعاله !!

سيدى الأستاذ الجليل : نحن فى محنة ، ورحم الله أيامًا كان شيوخنا فى الأزهر فى القسم الابتدائى والثانوى أعلامًا فى المعرفة ربما أفضل من بعض دكاترة هذا الزمن الوبى ، فى النحو والفقه والتفسير والحديث والعروض والبلاغة ، ولست من الناعين اللائذين بالماضى ، بل إننى لمست هذا حتى مع طبقة المستشرقين الذين تلمذنا لهم ، وخلف من بعدهم خلف ضيع علمًا وفضلاً ، وإن كانوا أفضل من الخلف عندنا ، ولست - والله - أدخل الحزن على قلب الأستاذ، فما إلى هذا وكدى .

كيف يكون الإصلاح ؟

وإذا كان الشيخ قدم مقترحات للإصلاح ، فلن تكون فى يد من كانوا سبب الإفلات والضياع ، ترخصًا واستنامة ، إنما المسألة تقتضى بعثًا ونخوة قبل البرامج الدراسية ، وإحساسًا فرديًا يتنامى فيشكل اتجاهًا إصلاحيًّا ، ولن تكون البرامج التربوية سوى معين ، إذ لابد من امتلاك الأداة والمحصول أولاً لأشكله حسبما أشاء ، ولأضرب مثلاً يسيرًا بمدرس النحو الذى لايعرف غير قشوره ، وهو ممتلئ العقل ببرامج التربية وطرق تدريسه ، فماذا يصنع أو يفيد ؟ . .

إن الألقاب الجامعية حصلها غير أهلها ، والسمكة تفسد من رأسها ، والمتخرجون نتاج طبيعى لهذا الرأس ، وقد سرى كثير من هذا الفساد فى السلم الوظيفى بالجامعات ، حين أبحنا للمدرس والأستاذ المساعد اللذين لم يرقيا إلى

درجة أستاذ ، وأدركتهما سن المعاش أن يظلا مدرسًا متفرغًا وأستاذًا مساعدًا متفرغًا أسوة «بالأساتذة الأساتذة» ، وكأننا نسوى بين العجز والقدرة والكسالى والمجتهدين ، وكله عند الجامعة صابون ، كان المفروض أن يحال هؤلاء للمعاش، حين رضوا بالدون ، لا أن يحرزوا «المكافأة» ، ولماذا يعنون أنفسهم بالبحث وسهر الليالى مادامت الوظيفة مضمونة ، والجائزة مدخرة لهم ؟ فى حين نكيل بمكيال آخر عند تأخر المعيد أو المدرس المساعد عن إحراز اللقب ، ونحولهما إلى عمل إدارى . كفى أيها السادة تدليلاً للعجز وارتكاس القدرة ، هلاً حولنا هؤلاء قبل المعاش إلى أعمال إدارية ، فإذا بلغوا السن القانونية خرجوا وشيعوا دون بكاء إلا من ثبت عجزه جسديًا عجزًا كليًا ، وأخشى من اللجان الطبية آنذاك ، ومن التقارير المزيفة .

وثمة نمط آخر من هذا العجز يتعلق بالأساتذة أنفسهم ، حين يركنون إلى عدم البحث والكتابة ، وكأنما الأستاذية آخر المطاف ، وحين يبحثون عن مناصب كما يبحث «عبده مشتاق» ومن على شاكلته وفقدنا الأسوة فى الأساتذة الكبار : على الجارم ، وعلى الجندى ، ومحيى الدين عبدالحميد ، وأحمد أمين ، وأمين الخولى، كل هؤلاء غير دكاترة !! ، وشوقى ضيف ، وأحمد هيكل ، والطاهر مكى ، ورجب البيومى وإخوان هذا الطراز .

ثم تأتى الإعارات ، وأصحابها فى البداية طلاب رزق ومعذورون ، لكنها تتحول عند طائفة إلى احتراف ، وتحت مسميات كثيرة مثل مرافقة الزوجة - وكان الناس يخجلون منها بداية - ويستقيلون حين انقضاء «العدَّة» ، وحين تكون المسألة بهذه الصورة لاتَنتظر بحثًا ولاعلمًا ، مع وجود الكتب المقررة سلفًا ، وحين يعود البعض ينسى مابحثه قديمًا ، خاصة حين يكون مدرسًا لايزال ، وتطفح المرارة النفسية عاجزًا حتى عن القراءة ، لأنها عادة وضرورة حياة لمن تمرس بها وعاناها .

هذا هو الحال ، ولا أمل إلا ببعث جديد ، وإلا إذا تحولت السنن ، وتبدل الخلق جملة كما يقول ابن خلدون ، وهو أمر غير عزيز إذا صحت العزائم وصدقت النوايا ، وللأستاذ الجليل تحية الآمل ، لاتحية القانط المستخذى ، وشكر الغيور لاشكر المداهن .

شعراء العالم في ليما

عرفت بيرو قبل أن أذهب إليها ، عبر شاعرها الأكبر «ثير بابيخو ١٨٩٣ - ١٩٣٨» ، ومن خلال دعوة كريمة تلقيتها من سفيرها الفنان المثقف «دون ألبرتو تامايو» فى القاهرة مع حشد من رجال الفكر والأدب ، وحين ذهبت إليها صدقت الرؤية السماع ؛ فالشعر زاد يومى ، والفن البسيط يلمحه الناظر فى حديث الناس، وفى انتظام البيوت ذات الطابق الواحد أو الاثنين ، كأنها الموشحات الأندلسية بأغصانها ، تنتهى كل مجموعة منها بخرجة "Jarcha" تمثلها حديقة منسقة ، ينتظرها السائر فى الشارع ، أو السائر فى تضاعيف الموشحة ، وإن خرجت أحيانًا على أعاريض العرب خروج الناطحات على النسق ، ولحسن الحظ فهو قليل .

الرحلة إليها تطول كرحلة البحث عن القصيدة يحمدها الراحل حين تبدأ وحين تنتهى ، مستشعرًا متعة الحلول كمتعة الكلمة فى محلها من القافية ، هكذا كانت رحلتى إلى ليما العاصمة ، قصيرة الأمد ، عريضة المعانى .

وكانت خرجتى من المطار محمودة حين استقبلتنى سفيرتنا الفضلى فى ليما ، ومعها الوزير المفوض ، وحملتنى سيارة الجامعة إلى الفندق ، فعرفت للوهلة الأولى أن النظام عصب المهرجان وهكذا كان .

واحد وثلاثون شاعرًا من عشرين دولة ، لكل واحد منهم مكانته المؤثلة فى عالم الكلمة ، كنت أعرف بعضهم من قبل رؤية كشاعر إسبانيا ، وقراءةً كأغلب شعراء أمريكا اللاتينية . ومن لم أعرف منهم خاصة من آسيا ، وفنلندا والدانمارك والولايات المتحدة بت أعرفه كأننا أصدقاء، وكأن جذوة الشعر المقدسة أذابت صقيع التخوم والحواجز .

ترتفع أعلام الدول المشاركة فى المهرجان فى ساحة جامعة ليما ، وهى جامعة خاصة - لعل جامعاتنا الخاصة تحذو حذوها - وتبدأ جلسات المهرجان بكلمة

افتتاح رئيسة الجامعة ، ولغتها صافية عذبة ، ويقع العبء الأكبر على الشاعر الناقد الدكتور خورخى كورنيخو ، أستاذ الأدب والنقد ، فى تنظيم المهرجان وتقديم الشعراء ، والحفاوة بهم كأن كل شاعر ضيفه الخاص لاضيف الجامعة ، وتبدأ الجلسات بعد الافتتاح ، خصص لكل شاعر نصف ساعة ، يقدم فيها كلمة عن شعره ، ويقدمه ناقد ، يلقى بعده الشاعر مجموعة من قصائده بالإسبانية فهى لغة المهرجان الرسمية ، ولأن الشعر إنسانى فى بواعثه وغاياته ، وهى التعبير عن الإنسان حيث كان ، كان تجاوب الجمهور بلاحدود ، فيخيل إليك أن هذا الجمهور لاهم له فى حياته سوى كان الشعر ، يطرب له ولو لم يعرف اللغة الأصلية التى ينشدها الشاعر ، وقد تحقق هذا مع كاتب السطور حين قدم كلمة عن الشعر العربى ، وقال - ضمن ماقال - إنه يحمل ستة عشر قرنًا أو يزيد من شعر أمته يقرأه القارئ المعاصر ، منذ بداياته فى حروفه هى هى دون حاجة إلى ترجمته إلى لغة معاصرة ، وأن شعره يحمل قسمات نفسه ولون عينيه ، وأنه يميل إلى الشعر المتأمل ، وقرأ مجموعة من قصائده بالعربية ثم بالإسبانية التى قام بها شاعر ناقد هو «ساندرو تشيرى» ، وطرب الناس طربًا ، واهتزوا فى أريحية ربما لم يجدها مع الجمهور العربى ، ومن حق القارئ هنا أن أنقل ماكتبته جريدة «الإكسبريسو» فى تعليقها : إن إنشاد الشاعر المصرى يقطر عسلاً ، والتفت الناس إلى القافية الموحدة . وكانوا ينتظرون دقة الرجل ، وحوصر الشاعر بإعجاب شديد حتى إن شاعرًا مكسيكيًا من تلاميذ أوكتابيو باث المباشرين ، حياه قائلاً : لقد أدمعت عينى، ولست أروى مثل هذه الطرف مما حدث - وهو كثير - إلا لكى أثبت يقينًا قديمًا أن الوزن والقافية من جوهر الشعر ، وقد لمحتهما فى إنشاد الشعراء وطربت بصفة خاصة للشاعر البرتغالى والبرازيلى والإيطالى فضلاً عن الإسبانى ، وأشفقت على من يمثلون مصر أحيانًا من كتاب النثر ، كيف يقابلهم الجمهور هنالك ، كما أثبت هذا المهرجان لدى يقينًا آخر ، هو أن الشعر «ديوان العرب والعجم» . وأن هذا الجمهور الذى افتعد الأرض فى القاعة الكبرى حيث لم تكف المقاعد دليل على ضرورة الشعر فى الحياة المعاصرة ، وربما يتخلى الإنسان عن الآلة ولايتخلى عن الشعر حيث هو شعور .

ويقوم شاعر إنجليزى ينشد مراثى فى زوجته التى قبرها فى ليما ، فذكرنى بشعرائنا المصريين الراثين زوجاتهم عبدالرحمن صدقى وعزيز أباظة وطاهر أبوفاشا ورجب البيومى ، وأن ديوانًا خامسًا يضاف إلى هذه الدواوين ، وهو مجال مقارنة ممتعة .

وينشد ماركو مارتوس من ليما ، ويهدى قصائده إلى الشاعر المصرى العاشق الأندلسى ، حيث يتحدث عن ولادة وابن زيدون ، والمنصور ، وعبدالرحمن الناصر فى قصائد تحمل هذه العناوين ، وفيه ذلك العبق الأندلسى المتأثر بكلام الشعراء الأندلسيين المترجم إلى الإسبانية .

وكانت أحاديث المائدة فى الليل فصولاً ممتعة تتحدث عن نجيب محفوظ ونوبل، ولغته الدقيقة المصورة ، ووعيه العميق بالحياة المصرية اليومية ، وحسه الإنسانى العالى ، وقد أسهمت الترجمة الفرنسية أولاً ثم الإسبانية ثانيًا بمعرفة الناس بكاتبنا الكبير وكانت قامتى تطول وأن أصغى لهذا الحديث العظيم ، ويتردد الحديث عن ترجمات غرثيه غومث ، وأسين بلايثوس إلى الإسبانية وتأثير الشعر الأندلسى فى جيل ٢٧ الإسبانى .

ويزهد الجمهور فى سماع شعر قليل حافل بالأحاجى والألغاز ، ويصعد صاحبه إلى المنصة وينزل ، فلا يوليه أى اهتمام حتى من قبيل المجاملات ، ويسلقه الشعراء العقلاء بألسنة حداد فى ردهات القاعة والجامعة فى الأحاديث الجانبية ، ولايطرب الجمهور كذلك لما يسمى بقصيدة الجسد ، والكلام العارى ، ومثلته قصيدتان فقط ، ومثل هذا يحدث عندنا إلا مايكون من قبيل المراءاة .

وتختزن الذاكرة أشياء كثيرة عن عمق الملتقى الشعرى وتنظيمه وشعرائه الكبار ، وحفاوة شباب الجامعة بالشعر والدواوين التى يتهاداها الشعراء ، وأحمل منها كمية كبيرة ، أعالج بعضها فيما بعد .

من قبيل نكران الفضل عدم إزجاء التحية إلى السيدة هالة حسن إسماعيل سفيرة مصر هناك ، وإلى الأستاذ عبدالموجود الحبشى الوزير المفوض بالسفارة ، حيث يشرفان بلدهما فى مثل تلك المحافل عارفين الدور المنوط بهما وقد دعت

السفـيرة بعض السفراء ورئيـسة الجامـعة ورئيس المهرجان ، وبعض رؤسـاء تحرير الصحف ، والإذاعة المرئية والمسموعة على شرف الشاعر المصرى فى دار السفارة ، وقد أدليت ببعض الحوارات الصحفية والإذاعية نشر بعضها وأذيع ، ولحقنى بعضها عن طريق سفير بيرو بالقاهرة بالإنترنت .

لقد عرفت بيرو على البعد كما عرفتها على القرب والمسافة بينهما إنشاد قصيدة رائعة تصل القـريب بالقريب ولا أقول البعـيد بالقريب ، وللجنة الشـعر والمجلس الأعلى للثقافة فى مـصر الشكر العميق لإتاحة الفرصة أن ينشـد شعر عربى لأول مرة فى تلك الديار ، بين شعراء من أربع قارات .

ولعل العنوان وقد جاء موزونًا من بحر الخبب «شعراء العالم فى ليما» يؤكد مرة أخرى للعـرب والعجم أن الوزن عـفوى ، وأن الذى لاوزن له ، عليـه أن يبحث عن مـهنة أخرى يبـاشرها أو تبـاشره ، وأن يدع الوزن للوزانين ، وإلا كـان من الضالين .

«شعراء العالم في ليما»
من حصاد المهرجان

الحفاوة بالشعر نشرًا ، وإنشادًا ، واستحسانًا شئ معجب فى ليما ، على نحو يذكرنا بما كان يحدث فى مصر أيام شوقى وحافظ والجارم ، فالصحف اليومية فيها مادة خصبة ، والمجلات المتخصصة التى تهتم بالشعر فقط ، وحضور الجمهور الذى يصافحك وجهه لايتخلف عن الجلسات ، وطربه وهو يهتز اهتزاز الكريم حالة الإنشاد ، دلائل واضحة على أن الشعر ديوان الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم .

تخرج جامعة ليما مجلة خاصة بالشعر ، لاعلى نمط الحوليات الجامعية عندنا ، بل كل همها الشعر قصائد ودراسات عنها ، وقصائد مترجمة من لغات شتى ، وزعت المجلة على المشاركين وتحمل اسم "Evohé" وتعنى الصياح أو الحداء بمعنى أدق ، وكأن العرب والعجم يشتركون فى الحداء والتغنى بالشعر ، وتقصر المجلة حدودها على الشعر فحسب ، وتطبع الجامعة مجلدًا فاخرًا هو حصاد ماقيل فى المهرجان مترجمًا إلى الإسبانية ويتضمن تعريفًا بالشاعر ويحمل عنوان «مهرجان شعراء العالم» يقدمه بكلمة موجزة رئيس المهرجان «خورخى كورنيخو» ، ليدع الصفحات للقصائد التى تجاوزت مئة وخمسين قصيدة ، وتمثل ديوانًا ضخمًا يجمع مابين الهند واليابان إلى البرتغال وبيرو وبينهما بلاد كثيرة شرقية وغربية .

استرعى انتباهى بشدة كثرة الشعراء من أساتذة الجامعات ، الذين أخلصوا للشعر والبحث معًا على غير المعهود عندنا ، فما إن يبدأ الشاعر فى بحثه الأكاديمى حتى ينسى عرائس الشعر ، إلا من رحم ربك ، وهم قليل جدًا عندنا. الجامعيون هنالك كثرة كاثرة من الشعراء ، تجاوزوا مرحلة الشباب وبعضهم شيَّخ وأدركته الكبرة ومازال يغنى ، وهم لايتخذون الشعر شارة ولباس زينة فى المهرجانات، ولكنك تحسبهم حين تسمعهم أو تقرأ لهم كأنهم لايعرفون غير الشعر .

ولديهم أيضًا مايشبه كراسات الشعر أو الرواية عندنا ، وكأنها كتاب غير

دورى، ينشر فيها الشباب - وهى لهم أصلاً - وكذلك الشيوخ ، وكأن هؤلاء يقولون بلسان المقال : لاتثريب على الشيوخ أن ينشروا مع الشباب ، وأن يشاطروهم همومهم الشبابية ، وهم جميعًا أسخياء بما لديهم من كتب ، يهدونها، ويطلبون منك الرأى أو النصيحة أو الترجمة إن كنت من غير لسانهم وتعرفه .

الإحساس بالنغم عال جدًا ، فالشعراء يغنون ولا أنسى هزة وجدانى بما سمعته من شاعر البرازيل وشاعر البرتغال وشاعر إيطاليا ، ومجموعة من شعراء أمريكا اللاتينية ، فبعضهم كان صناجة العجم كما هو الحال عندنا فى حافظ والجارم ، وكنت أنتظر القافية لدى شاعر البرتغال خاصة «بدرو تامن» وشاعر البرازيل «ليدو إيبو» ، وشاعر بيرو «أنطونيو ثيسنيروس» و «ماركو مارتوس» ولدى طائفة أخرى من الشعراء ، وكانت قوافى الشاعر المصرى موضع توقع لدى جمهرة من الشعراء، وكنت أشفق على الذين يمثلون مصر فى محافل دولية وهم ليسوا بشعراء لاوزنًا ولاقافية ، ولعلهم يدركون العوار الذى يبدونه فى تلك المحافل فيخصفون عليهم من ورق الوزن والقافية مايوارى هذه السوأة !!

لدى طائفة من الدواوين والدراسات النقدية عن الشعر ، وطائفة من القصص والروايات حملتها معى من بيرو ، عدا المجلات والصحف ، من العسير تناولها جميعًا فى هذا الإطار المحدود ، لكن بعضها حقيق بكلمة عابرة . أولها الأعمال الكاملة للشاعر :ثيسر تورو مونتالبو «فن الأحلام» وهو أقرب إلى الخيالات والأحلام ، وإن كان بعضه أقرب إلى أن يمسك به فلا يتفلت ، وفيه طائفة من القصائد يشترك فى كتابتها الرسم والدوائر ، والكلمات المفردة الحروف ، وبعض شعرائنا يكتبون بهذه الطريقة وإن كانت لاتروق لى ، ولا أرى فيها مايدعو إلى الشرود عن طريقة الكتابة ، لانفورًا من التجديد ، لكنه شيء لايقدم جديدًا ، وثمة كتاب جيد للشاعرة اليابانية «ساتوكو تامورا» عن سونيتات الموت لدى «غابرييلاميسترال» وطبع فى مدريد ، وكان رسالتها للدكتوراة فى جامعتها ، وملحق به طائفة من «مسودات» قصائد الشاعرة ، وتناولتها الباحثة بالدرس العميق ومدى التنقيح الذى أصاب الصورة النهائية ، وهو درس نفسى وفنى فى الوقت ذاته .

وثمة ديوان للشاعر «ألفونسو راموس ألبا» عن «درجات السلم» ، ويعنى به السلم الموسيقى ، وفيه تجديدات عروضية ، كما ألمح الشاعر إلى أنه جمع بين

أربعة أنماط عروضية قديمة منذ ملحمة السيد ومابعدها ، يزاوج الشاعر بين هذه الأنماط دون خروج عليها وكأنه الوشاح الذى يجمع بين البحور فى لعب فنى جميل ، وفيه إلى جانب هذا اللعب شعر حقيقى ، وتتأثر الكاتبة المكسيكية «بيرونيكا مورجيا» بالتراث العربى فى مجموعتها «أوْليا» ، فتورد حكايات عربية من بغداد ومن الكوفة ، وتذكر أبيات المتنبى المشهورة «الخيل والليل» من ترجمة غرثية غومث الفرنسية لها ، ويجمع عميد كلية الآداب الأسبق فى جامعة سان ماركوس «واشنطن دجادو» مختارات من شعره ، يختارها بنفسه ويقدمها تقديمًا نقديًا ، وهو من جيل الخمسينيات ومازال يغني الآن،ويستمتع بالحياة الحرة بعد قيود الوظيفة.

لكن الشاعر «ماركو مارتوس» الأستاذ بجامعة ليما ومن جيل الستينيات ، يهتز أكثر لما هو شرقى ، فيفرد قصائد لحافظ الشيرازى ، ويستلهم تاريخ بغداد ، وتاريخ الأندلس خاصة فى قصائد عن سجن ابن زيدون وحبه ولادة وعن المنصور، وعبدالرحمن الناصر وكيف أنه حكم خمسين عامًا ، وأيام سعادته فقط أربعة عشر يومًا ، ويتحدث عن مدينة الزهراء ، واقفًا وقوف شعرائنا بالأطلال قائلاً :

«نور أندلسى يسطع فوق الزهراء ، أشجار البرتقال والزيتون ، البرك والحمامات، والقاعات الذهبية ، نساء ، نساء قبل كل شئ ، عطر نسائى ، طنافس ، حرير فى قصر عبدالرحمن الثالث ، من زمن سحيق فى الأندلس ، بعيدًا عن جبل قرطبة ، بعيدًا عن المؤذن الذى يدعو الله الرحمن الرحيم. إنها قصائد فيها نفس أندلسي لابموضوعاتها ، بل إنها متأثرة بالشعر الأندلسى الذى ترجمه غومث إلى الإسبانية فى العشرينيات وأثر تأثيرًا هائلاً فى الشعر الإسبانى وفى أمريكا اللاتينية التى تدير بصرها دائمًا إلى إسبانيا ، دوران أبصار الأندلسيين إلى المشارقة فى الزمن العربى .

لكن ماركوس يصف المرأة فى بيرو وصفًا حسنًا ، يحسن أن نختم به هذه الكلمة ، ولتكن تحية المهرجان يقول : عطرك ، عطرك ، الذى يمتزج بالنور الذى يولد من الضباب ومن البحر فى بيرو ، عطرك ، وهيئتك وأنت ساكنة فى الجانب الأيمن من السرير ، وبجوارك فنجان القهوة ، يطير إلىَّ عطرك ، وصمتك ، وبسمتك وهى أجمل من الصباح» .

شعراء العالم في ماليزيا

نحسب أن أبانا الشيخ آدم حين هبط من الجنة اختار ماليزيا دار إقامة ، - إن كان له خيار - لئلا تكون الشقة نازحة بين ماكان فيه وما آل إليه ، فالخضرة والماء ووجه حوائه - هو - كلها تعزيه عزاءً حسنًا جميلاً ، وحين هبطت بنا الطائرة بعد ساعات طويلة ، تذكرت قول دعبل : «هبطت محلاً يقصر البرق دونه» ، وحين مضينا فى الشعاب والأودية بادرنى المتنبى «فصرت وقد حجبن الشمس عنى ، وجئن من الضياء بما كفانى» .

حمدنا الرحلة والمقام ، ومشاركة الشعر والمشاعر . وشكرنا المبادرة الطيبة من المسئول الثقافى فى سفارة مصر ، الأستاذ عطية أبوالنجا ، وجهًا متألقًا ومعروفًا فى الأوساط الثقافية الماليزية ، وذكرنى صنيعه بسفيرتنا فى «ليما» والقنصل العام هنالك ، وهكذا يسبق الدور الثقافى الذى لاوطن له أية أدوار أخرى .

نظم معهد اللغات الماليزى مهرجانه العاشر للشعر العالمى ، ولم تدع مصر من قبل ، وكان حظى أن أشارك بست قصائد ، ترجمت للماليزية ثم الإنجليزية ، ووزعت ترجمات القصائد على كل المشاركين تلقى القصائد فى لغتها الأصلية مشفوعة بالترجمة ، وتتوزع أماكن الإلقاء ، ثم تقام حلقات نقاش حول دور الشعر الآن فى عصر الأرقام . ويجمع الناس نظرًا وتطبيقًا حول ضرورة الشعر خاصة فى عصر يتحسس المرء أضالعه : هل مازال فيها نبض قلبه ، أم أنه حال وانتسخ ؟

أكثر من خمسة وستين شاعرًا يؤكدون هذه الحقيقة المؤكدة فى العروق والأعصاب قبل أن تكون أحرفًا ، لم يكن بين المدعوين شعراء من إسرائيل أو من أمريكا الشمالية ، وحمدنا هذا التوجه إن كان مقصودًا أو غير مقصود ؛ لأن الشعر لايعرف العنصرية ولا الغطرسة ، ولعل عنوان المهرجان كان واشيًا بهذا «الشعر والإنسانية» ، دعى اثنان من المغرب فحضر ناقد ، وعراقيان من المهاجر فى

الدانمرك وإنجلترا ، وأسفنا لعدم دعوة شعراء من العالم العربى ، ولعلهم دعوا ، ولم يتمكنوا ؛ لأن ذلك المعهد يقوم عليه نفر صابر محتسب يؤمن بواجبات الشعر ربما قبل الإداريات ، والسيدة نورازيان والأستاذ عبدالرحمن يوسف دليل واضح على ما نؤم .

التقينا بشاعر من بلنسية ، ولهذا الإقليم فى نفسى عبق خاص ، وبشاعر من بلجيكا ينظم بالإسبانية ، وبشاعرتين من المكسيك كانتا فاكهة المهرجان وريحانته ، إذ جمعتا بين الرقص وغناء الفلامنكو ، و «الكانتى خوندو» «الغناء العميق» ما ألهب المشاعر ، وهز الأعطاف قسرًا ورضى ، وإن أنس لا أنس «فلور» وهى تتمايل ، وينبت صوتها شجرًا فى العروق «غصون بان عليها - الدهر - فاكهة - وما الفواكه مما يحمل البان» ، وكانت تتلوى فى شجن كأنها تحرق الحمأ المسنون لتغدو فراشًا سماويًا !!

فى أمسية بجامعة العلوم والتكنولوجيا ، ألقى رئيس الجامعة كلمة ترحيب ، ثم غنى «وصلتين» بين ضيوفه وطلابه - أستغفر النظر - طالباته ، وهن بالزى الرسمى ، والفرقة الموسيقية تعزف ، غنى رئيس الجامعة فذكرنى برئيس جامعة مدريد بدرو مارتينث فى حفلات الجامعة ، ترى ما رأى رؤساء جامعاتنا ؟ .

فى صباح اليوم التالى للأمسية كنا فى ضيافة وزارة المالية ، وكلها أرقام وموازنات ، فإذا بالسيد الوزير يلقى قصيدة ، فيغلبه النشيج ، يرتفع بكاء ، فى رثاء أمه ، فنكأ فى النفس جراحًا قديمة جديدة ، وتذكرت شاعر الحمراء «بياسبيسا» يرثى صاحبته ، ويتذكر «مريمه» زوج أبى عبدالله الصغير ، راثيًا حزينًا.

واحتفل سفير شيلى فى داره بماليزيا بأول ترجمة ماليزية لبابلونيرودا ، ألقيت فيها قصائد لشاعر نوبل ولشعراء العالم ، وعلمنا أن السفير شاعر ، هل هناك عودة لأن يكون الشعر ديوان العرب والعجم لاديوان العرب فقط ؟ .

الحديث عن وقع قصائد الشاعر المصرى بين جمهور يعرف قليل منه العربية ، ربما يكون حديثًا ممجوجًا عن النفس ، لولا أنه يتعلق بطبيعة العربية الشاعرة ؛ إذ تلقى هذا الشاعر تحيات من الأعاجم تتصل بالصوت والإيقاع ، يساندها ترجمة

ماليـزية وإنجليزية ، فحمـدنا للعربية وشعـرها ماتلقياه من ثناء ، وتذكـرنا ؛ ماذا يصنع أصحاب النثر ، حيث يتوقع المتلقى الوزن والقافية ؟ ومما يستأهل النظر أيضًا هذا الكم الهائل من الغناء الذى يقطر به - أو يهمى - الشـعر الذى سمعناه هنديًا وصينيًـا ويابانيًا ، وتبادل الشاعـر والمغنى إهاب الآخر وتذكرنا حـبيب بن أوس : «ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدى فلم أجهل شجاها» .

إن الشعر - فى نجاره - يستخدم أهل ماليزيا هذه الكلمة للدلالة على الأصل - غناء ، ومحـاولة مسخـه وتشويهه - عندنا - مـحكوم عليها بالإخـفاق والموت ، «تغن فى كل شعر أنت قائله» على حد قول حسان ، ودعنا من «التهجيص» الذى يتمسح بإيقاعات العصر ، وإيقاعات «الخيبة» التى تلاحقنا فى كل المجالات !!

وقبل العـودة ، دعتنى الجـامعة الإسـلامية هناك لإلـقاء محـاضرة عن الأدب المقارن، وإلقاء مجموعة من القصائد ودار حوار فى قسم اللغة العربية بها . . كان حوارًا مثمرًا وطيبًا .

هل أتوقف محييًا وزير المالية المالـيزى ، الذى تلبث عندى مسلّمًا ومغتبطًا وهو يحيى الشعراء . حين عرف أننى قـادم من مصر ، لدرجة لفتت نظر المصورين فى أجهزة الإعلام ، ترى هل ندرك قـيمة بلدنا ، وندرك قيمة شـعرنا ؟ ، تحية لتلك الوجوه الإنسانية «تبدو الوجوه لعين عابرها وتغيب عنه كأنها رؤيا» .

خواطر شاعر بعد الجراحة

للمرة الرابعة وربما لاتكون الأخيرة أحمل على المحنة ، الطرقات الباردة - حتى فى أغسطس - والعينان متطلعتان إلى الأسقف لاترريان الرائح والغادى ، حتى بلغنا إلى «الأعراف» وهى ساحة تتوسط الصحو والغفوة ، أخشى أن تحملنى المحفة إلى غرفة أخرى ، أتسمع أصواتًا وضحكات بعد إجراء العملية السابقة على وقت خلته دهرًا ، وماهو إلا بعض ساعة تذكرت الضحكات والفكاهات ، التى يطلقها حفارو القبور فى مسرحية هاملت ، لا أرى غير عيون الأطباء والممرضات.

يطلب إلى الطبيب النطاسى أن ألقى بعض أبيات من الشعر ، ترهف الآذان ، ويسعفنى العقاد بشعره فى الحب متعلقًا بالأمل والحياة، تطل علىّ عينان كعينى ولادة بنت المستكفى الأندلسية أمد لهما قلبى قبل ذراعى للتخدير ، ويطفر ابن الرومى القائل فى «نزهة» صديقته : «نزهة عندى كاسمها نزهة» فأنشد الطبيبة ذات العينين الناشبتين وهجمها فى السجد قول ابن الرومى مغيِّرا «نزهة» ذاكرًا اسمها على الوزن نفسه ، شاعرًا بالغبطة أن يكون اسمها آخر مانطقته خارجًا من صحوى إلى مالست أدرى له اسمًا ، لأن حالة التخدير - وجربتها ثلاث مرات قبل - ليست نومًا ، فربما يكون فى النوم بعض الأحلام ربما تكون قريبًا من الموت ، ولأمر ما تذكرت بديع الزمان صاحب المقامات وقد دفن وفيه بقية روح ، وصحا فى قبره ولم يسعفه مسعف وتذكرت وصية نوبل : ألا يدفن حيًا ولعل هناك حالات مماثلة لايذكرها ذاكر ، وحسب أصحابها ماهم فيه من إهالة التراب عليهم، كما أوصى عبدالرحمن شكرى : ألا يدفن فى قبر يغلق عليه باب بل يهال عليه الرماد ، حالة التخدير لانظير لها فى المسميات الإنسانية ، ولعلنى أرجو - وقد جربتها أربع مرات - ألا يحسب وقتها من الأجل المقدور لى ، بل من المدخرات التى أود التعويض عنها حين يحين الحين .

أصحو صحوًا غير كامل ، فإذا اسم الأستاذة المخدرة أول مايطفر على لسانى ، وكأننى لم أكن المريض منذ ساعات بل صحا الشاعر ، وجاءت الأستاذة أو جاءت

عيناها - على الأصح - فخلتنى غيره ، ياإلهى !! أى نغم تصبه هاتان العينان فى شرايين الشاعر ، وأية لذة صاحية أو غافية تنشرها فى خلايا ذلك البيان الوهنان ، فتثبت الأبيات الغزلية على طرف اللسان، المجنون والعقاد ومريض «نزهة» وكأن الآهات المنبعثة منى ومن المرضى المجاورين لى هى الألحان أو الموسيقى التصويرية للشعر الذى أنشده . . إن الحياة تنبت من الموت ، وأفراح الإنسان وأشواقه العليا تنفخ الجمال فى أوصال الغناء إذا كانت له أوصال ، وسرى فى خلدى أن الأستاذة لم تحقن ذراعى بالمخدر وأنها أدركت أن عينيها فعولان بالألباب والأجساد ماتفعل الخمر ، إذا كان من تخدره رجلاً مثلى يسرى قلبه فى شرايينه ، وأن عقار عينيها ينبغى أن يدخل دائرة المعارف الطبية ، وينسب إليها وإلى هذا الاكتشاف ، مضت الأستاذة وسألت عنها وأسأل - حتى الآن - ولم أرها ، ولم يدلنى أحد بل إن الجراح الكبير - وفيه قلب شاعر - لايعرف إلا اسمها الأول ، فهل يكون ذلك الذى رأيته من قبيل الوهم ؟ لا وبكل الألسنة أقول :

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

ما أزال على الأعراف حتى الآن . وسوف أطلب من ملك الموت أن يمهلنى الوقت المسلوب منى، ولن أهتف بما هتف به المعرى قديمًا :

ولو كان يبقى الحس فى شخص ميت

لآليت : أن الموت فى الفم أعذب

لا يا صديقى : فإن طعم الحياة والحب والأمل أعذب فى كل فم.

لغير هذا كنا نستعد !!

كنا نستعد معًا ، وفى النفس توثب ، وطموح لاحد لهما .

كنا نخطط معًا لمشروعات علمية كثيرة ، والنفس جميع ، والعيش غضى ، وأحلام الشباب تطير بنا كل مطار !!

كنا !!

وما أقسى زمن هذا «الفعل» الذى يشل العقول أن تفكر .

ويعتصر الأفئدة فلاتعرف إلا الوجوم والجمود ، ويحبس الدمع فى الأعين ، فلا هو يرقأ ، ولاهو هامر !!

هل أقول : كنا ؟

وهو مازال فى النفس شاخصًا أساجله العطف والودادة ، أشكو إليه ، ويشكو إلىَّ ، أفكر فى كثير من الأعمال المتعلقة بعمنا العقاد من خلاله هو ، وأشاوره ، ويشاورنى فى كثير من ذلك !! ؟ .

مازلت أزوره حيث «كان» فى داره ، انتظر قدومه «متخيلاً» بل «مؤكدًا» أنه لن يخلف وعده - وما أخلفه أبدًا - بالحضور بعد إنجاز شئ من أعماله فى القاهرة .

لكن مات عامر !!

كذب لأول مرة وعده الصادق ، والانتظار اليابس يسرى فى القلب لوعة ، وفى النفس يأسا وحسرة .

مات عامر !!

ولغير هذا كنا نستعد ، وفى اللحظات الأليمة القانطة ، وغاشية المرض اللعين تحدق به ، لانفتأ تساورنا استعدادات هائلة لإخراج كثير من أعمال العقاد .

صديقة أدبية ذكية اتصلت بى فور سماعها بهذا النبأ ، لتقول لى : اليوم فقط مات العقادي الكبير !!

وما بالغت هذه الصديقة !!

فعامر استطاع طول حياته أن يوقظ السادرين ، أن يثير الراكد فى أعماق الجاحدين فى صمم البلادة والأنانية ، أولئك الذين يسؤوهم أن يذكر العقاد ، بل يحاولون طمس فضله ، وبخس حقه ، وكان عامر كالمطرقة ، وكالشعاع الذى ينبه الغافلين .

وعامر أيضًا ، بين أبناء العقاد ، يكاد يكون الوحيد - ومعذرة إذا حذفت «يكاد» هذه - منهم الذى ورث بعض أقباس من عمه العقاد ، يعنيه - أولي من كل شيء - أن يحتفظ بذكرى عمه نظيفة شريفة ، ذكراه رجلاً ، وأديبًا ، فى حين يعنى كثيرين فتات من حطام الدنيا !!

ومايكلف الله نفسًا فوق ما تسع !!

وعامر - على قرابته من العقاد - كان فى وسعه دائمًا أن يحتفظ بتوازنه تجاه عمه إزاء المنكرين لفضله ، والشانئين ، فما كان - إلا فى النادر ، ومضطرًا - يتولى الذياد عن العقاد ، وحجته ناهضة ، بل كان يؤثر أن يتولى ذلك عنه تلاميذ العقاد ، وماكان يضن علينا بالوثائق التى ينهض عليها دفاعنا للشانئين .

فتح بيته ، ومكتبته ، وقبلهما - قلبه - لاستقبال كل من يهتم بالعقاد ، بل إنه كثيرًا ماكان يرحل بفكره إلى هؤلاء المهتمين ، حتى خارج مصر ، وكاتب هذه السطور أحد الذين كان يتلقى منه مايتصل بالعقاد - وهو أى كاتب السطور فى إسبانيا طالب بعثة - سواء بالرسائل أو بالمحادثات الهاتفية ، وما أكثرها !!

عاشر عمه عشر سنوات تقريبًا ، كان بمثابة «أمينه» الخاص ، عرفه عن كثب ، وما كل من يتقرب من الأساتذة بمستطيع أن يقترب منهم فكرًا وشعورًا ، وبخاصة من رجل مثل العقاد ، عاش حياة العزوبة والوحدة ، بيد أن عامرًا استطاع أن يهدم أسوار العزلة الباردة ، وأن يجعل السنوات الأخيرة من حياة الأستاذ مأنوسة، تنحسر عنها - شيئًا ما - موجات الوحدة والانفراد .

والسنوات العشر هينة بحساب الأيام ، لكنها هائلة بحساب ما يكنز فيها من معاشرة العقاد ، والاقتراب منه ، وعامر ذو عدسة لاقطة ، وذو ذاكرة حديدية تختزن كل مايمر بها ، ولذلك كان أوفانا جميعًا معرفة بالعقاد ووقوفًا على دخلة نفسه ، يعينه على ذلك معرفة بطبيعة الأستاذ ، وفهم لأطواره ، ومناحى فكره ، وكان يسرد علينا - بعد وفاة الأستاذ - سيلاً من هاته الحوادث فلايخرم منها شيئًا، ولايتزيد ، - وآفة الرأى الهوى - الذى يملى للمزيد فيسد مواقع الثلمات التى تعبث بالذاكرة ، غير أن عامرًا كان بنجوة من هذا المنزلق الوعر ، وآية ذلك أن بعضنا كان شهودًا على مايقص ، فينعقد الإجماع على قوله .

لا أظن أن عامرًا أفضى بكل مايعرف عن عمه - وتقاليد حياتنا حاصرة وضائقة- ، لكن كثيرًا من الأسرار التى يعرفها كنا بحاجة إلى فض الختم عنها ، لنعرف ماينبغى معرفته عن رجل ملأ الدنيا وشغل الناس كالعقاد .

هناك بعض لحظات الضعف ، وتكتمل بها جوانب صورة العقاد الإنسان - لاهرقل الجبار الذى نعرفه - من الحتم أن الأستاذ عاشها ، طويت صفحتها بموته، وطواها عامر - بلا ريب - فى أحناء صدره حتى وارها التراب ، وصنع ذلك بعض خاصة العقاد كالمرحوم طاهر الجبلاوى - أمينه على أسرار قلبه - لم يكمل لنا جوانب صورة العاشق العقاد ، الذى ملأ الدنيا عشقًا وحبًا وغزلاً .

إلا أننى أوجه دعوة مخلصة وحارة إلى أستاذى وصديقى خليفة التونسى - نسأ الله فى أجله - وهو أمين أستاذه على أسراره البيتية - أن يميط اللثام - غير متحرج كشيوخنا المتحرجين - عن بعض مايعرف - وهو كثير - من حياة شيخنا العظيم .

وعامر «الأمين» ألفى نفسه مسئولاً عن كم هائل من تراث الأستاذ فتوفر عليه توفر الأديب ، أخرج عشرات الكتب التى لم تصدر فى حياة العقاد ، مابين منظوم ومنثور ، أخرج الديوان العاشر وقدم له بمقدمة أبان فيها عن مقدرة نقدية حصيفة ، وجمع بعض مقالات العقاد التى لم تنشر فأخرجها فى كتب ضخمة غير حائد عن تصنيفها وعنونتها عن طريقة الأستاذ ، شافعًا ذلك كله بمقدمات نقدية واعية .

إلا أن تراث الأستاذ كثير ، وكم راودنا الأمل - هو وأنا - فى جمع مقالاته السياسية - وهى من الأدب العالى على غير مايظن بعض الناس - ونشرها فى كتب تبلغ عشرة مجلدات على الأقل ، تقف من خلالها على تاريخ مصر السياسى حيًا شاخصًا بقلم شيخ عظيم كالعقاد ، وبالفعل كنا بدأنا فى جمع هذه المقالات - وهى تحت أيدينا - لإخراجها ، والقدر لم يمهل !!

كما طوقنى - وهو معى - بشرح وتقديم ، وضبط ديوان العقاد فى عشرة أجزاء ، مع صنع مختارات منه للقارئ غير المتريث ، وبدأت بالفعل هذه المهمة وهو على فراش المرض .

لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها وأخلفت الآمال ما كان من وعد

وكان المظنون فى رجل مثل عامر العقاد أن يقتصر جهده على كتب عمه ، لكنه لم يصنع ذلك ، بل امتد عمله الأدبى خارج هذا الإطار - فأخرج للناس ترجمة لأحمد أمين من أهم الكتب ، ومن أوائل ما صدر عن الأديب الراحل ، عرف به تعريف العالم الموضوعى متخذًا من طريقة عمه منهجًا فى كتابة السير والتراجم ، فلم يبعد ، وأصاب المرمى .

كما كتب عن الشاعر الراحل صالح جودت كتابًا ، وضعه فيه «فى الميزان» ، مؤتسبًا بعمه أيضًا ، ولست أعرف بواعث تأليف هذا الكتاب ، وما سألت عامرًا عنها ، ومع أننى لا أوافق على كل ماجاء فيه من أحكام نقدية ، إلا أننى لا أرى حرجا من اصطناع هذه الوسيلة الحادة الجارحة - أحيانًا - فى النقد الأدبى ، إذ هى قمينة بشحذ النفوس والهمم الراكدة الخاوية ، مفضلاً إياها - على قساوتها - على طريقة التظرف والترقق المتخنث ، والمجاملات الحقيرة الشائعة كثيرًا فى حقل الأدب والنقد ، وهي سبب جفاف حياتنا الأدبية وفسولتها ، نحن الآن فى أشد الحاجة إلى النقد اللاذع الجارح لنميز الخبيث من الطيب ، وما أكثر الخبيث !!

وليس معنى هذا أننى أنكر مايسمى الموضوعية والاعتدال ؛ إلا لأنهما ارتبطا فى حياتنا ولدى طائفة من ببغاوات النقد بالتظرف الرخيص والمنفعة المحسوبة فى سوق النخاسة الأدبية ، وخير لنا ألف مرة أن نكون «رجالاً» من أن نكون مخنثين

مرتكسى الطبائع ممسوخى الأذواق ، وكتاب عـامر عن صالح بهذا المقياس ، يبقى له فضل التنبيه والإثارة الواعية ، وماذلك بيسير !!

لكن لعامر كـتابًا نشره منجمًا فى صـحف السعودية ومصر يدور حـول شعراء المملكة وأدبائها ، وعن المتنبى ، لم يجمع حتى الآن فى كتـاب ، وأعتقد أن كتابه هذا خير كتبه ؛ لأنه ألفه أوان النضج والاستواء - من أواخر ما كتب - ولم يفقد وهج الشباب ، فيه نظرات نقدية حصيفـة ، ولو خرج فسيرى القارئ عامرًا الناقد المتذوق ، والقارئ اللبيب ، والكاتب المتمكن .

فى آخر احتفال بذكرى العقـاد فى أسوان ، كنا فى القطار مجموعة من الأدباء والصحـفيين ، يتحـدث عامر عن ذكرياتـه مع العقاد ونوادر الأستـاذ المضحكة ، وننشد الشـعر فى العقـاد وفى شتى الموضوعـات ، إلى أن اجتمـعنا فى الحفل ، فتقـدم عامر يلقى قصيدة مـن نظمه عن العقاد ، لم يحدثنا بشـأنها لا فى القاهرة ولا فى القطار ، ولا فى أسـوان ، قـصـيدة جـيـدة النظم والسـبك ، من بحـر الخفيف، ألقاها إلقاءً جيدًا ، وطوى الورقة فى جيبه ، وماكنت أعرف ، ولا أحد غيرى من مخالطى عامر يعرف عنه قـرض الشعر ، أكانت هذه القصيدة - ياعامر - أنشودة وداعك تلقـيهـا بنفسك ونحن لاندرى ، وهل كنت تدرى وحـدك أنها معزوفة الختام ، أم أنك كنت مثلنا ليس لخـيول رجائنا فى الحياة لجام ، نرخى لها العنان ، فتنجد بنا وتتـهـم ، على إيقاع قصيدتك ، الأسـوان ، والشمس غاربة ، والنيل «طالت مرامى نبعه فسلاها» ، «وأنت بيننا غير مسلو» .

ويحك أيها الموت ، لقد طويت صفحة عـامر الفانية ، وماطويت ذكره وفضله الباقيين ، فهو باق كأغلى ماتضن به النفوس والضمائر فى مكنونها ، وإن كان قد مضى كـما يمـضى الناس أجمـعين ، رحـمة الله عليك فى الـباقين الذاهـبين ، ورحمة الله لنا محزونين ، مودعين !!

مـــا أســـرع الأيـــام فـــى طينـــا تمضـــى علينـــا ، ثـــم تمضـــى بنـــا